الفصل الثالث

خصائص البحث النوعي

في الفصل السابق كان الحديث عن أنواع البحث النوعي والتوجهات التي يسلكها عادة الباحثون ضمن التوجه النوعي، في هذا الفصل سيكون الحديث عن الخصائص التي تجمع هذه الأنواع، وتجعلها تسير في هذا التوجه. كما سيعرض هذا الفصل بشيء من التفصيل الفرق بين التوجه النوعي والتوجه الكمي في البحث، وذلك لإعطاء مزيد بيان لخصائص البحث النوعي. ثم يستعرض الفصل قضية مصداقية البحث النوعي.

خصائص البحث النوعي

يتفرد البحث النوعي بخصائص تجعله مميزا في ذاته وفي نفس الوقت تميزه عن البحث الكمي. ووجود هذه الخصائص لا تعنى دائما أنها تعطيه الأفضلية، بل هي خصائص يتصف بها، وإن كان غالب أنصار البحث النوعي يرون أن هذه الخصائص إيجابية وتجعل البحث النوعي - بشكل عام - أفضل من البحث الكمي. لكن هذا الكتاب لا ينطلق من هذه الفرضية، بل هي خصائص يختص بها البحث النوعي قد تجعله أفضل في أوضاع معينة لكنها ليست بالضرورة أفضلية مطلقة. ويمكن تلخيص هذه الخصائص في الآتي:

١- الطبيعية

وهي الخصيصة الأولى والأوضح للبحث النوعي والتي يؤكد عليها كثير من أنصاره، إلى حد أن بعض الباحثين يسمون هذا النوع من البحث البحثَ الطبيعي، فالبحث النوعي يستكشف الظواهر الاجتماعية في أوضاعها وسياقاتها الطبيعية، وكما تحدث كل يوم. ويستمد معلوماته مباشرة من الوضع الطبيعي الذي تحدث فيه الظاهرة دون تصنع، والباحث هو الأداة الرئيسة لجمع المعلومات، فالباحث يدخل لمكان البحث ويلتقي بمجتمع دراسته، ويجري المقابلة معهم ويلاحظ ما يقومون به، وربما يشاركهم عملهم الذي يدرسه، ولا يتدخل بأي حال في تعديل هذا الوضع لأجل دراسته، فالباحث يحرص أن يبقى الناس والأشياء والأحداث على طبيعتها، وأن يتصرف الناس على سليقتهم وبعفوية. فالطبيعية سمة أساسية في البحث النوعي.

وهذا ما لا يحدث عادة في البحث الكمي الذي تُكيَّف فيه بيئة الدراسة لإيجاد متغيرات معينة وضبط أخرى. وغالبا تجمع المعلومات من خلال استبانات لا يكون الباحث عادة طرفا فيها. وفي محاولة لبيان الفرق بين النوعين يمثل باتون (Patton.2002) الاستبيان بالصورة الثابتة، والبحث النوعي بالفيلم الوثائقي، فالصورة الثابتة تعطي وصفا جامدا للحظة واحدة من الظاهرة المدروسة، بينما الفيلم الوثائقي غني بمشاهد متعددة وتفاصيل لا حصر لها، ويعطي الصورة من زوايا متعددة، فهو ينفذ إلى عمق الظاهرة، ولا يكتفي بالوقوف على السطح.

فالبحث النوعي أكثر انفتاحا وأقرب إلى الظاهرة المدروسة، حيث نجد صورة واضحة وجلية للظاهرة من منظور المبحوثين، مما تعجز عنه الأساليب الكمية، وهو ما يعطي البحث النوعي قيمته. وهذا قد يكون له ميزة زائدة في البيئة المدرسية التي غالبا يتطلب فهمها نفاذا إلى السلوك الطبيعي العفوي للطلاب.

٢- مركزية المعنى

تكوين معنى شامل وعميق عن الظاهرة المدروسة هو الهدف الأساس في البحث النوعي. يقول Hatch, 2000, p. 8 "الأصول الفلسفية للبحث النوعي ترجع للإرث الفكري الألماني كما هو في العلوم الاجتماعية في علم الاجتماع التفسيري لماكس فيبر، فعلى عكس الاجتماعيين الوضعيين في القرن التاسع عشر في فرنسا (مثل كومت ودوركاييم) أكد فيبر وأتباعه على أهمية الفهم في تحليلهم الاجتماعي، فقد كانوا راغبين في وصف المعاني التي يستخدمها الأفراد لفهم الأحوال الاجتماعية بدلا من محاولة تحديد "الحقائق الاجتماعية" التي تكوِّن النظرية الاجتماعية الوضعية."... "فمحور البحث النوعي فهم المعاني التي يبنيها الأفراد لأجل أن يشاركوا في حياتهم الاجتماعية. فلا يسعى البحث النوعي لتكوين معنى جزئي أو منتزع من سياقه، مثل العلاقة بين متغيرين، أو أثر متغير على آخر، بل يهدف لتكوين معاني أشمل وأعمق عن موضوع البحث، بحيث يطرح نظرية متكاملة عن الظاهرة في سياقها الطبيعي، فهو مثلا لا يسعى لاكتشاف أثر التدريس بأسلوب التعلم التعاوني على زيادة تحصيل الطلاب، بل سيكون التركيز على ما يمثله التعاون في التعليم للطلاب، وكيف يرون التعاون وما هي الآليات التي يسلكونها لتحقيق التعاون. وما صور التعاون التي تظهر بين الطلاب.

يؤكد الاتجاه النوعي على أن الإنسان ليس فقط موضوعا للبحث بل أيضا ذاتا عارفة ومفكرة، كما أن الباحث ليس موضوعيا، بل مثقلا بالأفكار والرؤى الذاتية التي تنساب في عملية البحث ونظرياته وفرضياته وتحليله ولذلك لا يكفي دراسة الظواهر كما هي بل لا بد من دراسة مغزى البشر الفاعلين الذي تقوم عليه هذه الظواهر، أي المغزى المقصود الذي يقتضي التأويلات الذاتية للمبحوثين. (عرابي، ٢٠٠٧).

٣- الاستقراء في التحليل

يتميز البحث النوعي بشكل عام بأنه يستقري المعلومات حول ظواهر ومواقف متفرقة حتى يتوصل إلى أنساق عامة، فهو ينطلق من الجزئيات إلى الكليات. يقول هاتش (Hatch, 2002) لا يبدأ الباحث النوعي، كما الحال في البحث الكمي، بفرضية يريد أن يثبتها أو ينفيها. بل يجمع ما يستطيعه من التفاصيل من مكان البحث، ثم يبدأ عملية البحث عن أنماط وأنساق العلاقات في وسط تلك التفصيلات. فإن الباحث لا يعيد تركيب صورة يعرفها في ذهنه، بل يرسم صورة تتكون شيئا فشيئا - دون أن يعلم ما ستكون عليه بشكل دقيق، في النهاية - مع جمع المعلومات وتحليلها (Bogdan and Biklin, 1998) والنتائج التي تؤخذ من هذه العملية يقال إنها مؤسسة في المعلومات أو متجذرة فيها وتعتمد مباشرة عليها، فالمعلومات تقرأ بشكل استقرائي، ثم ما يخرج من مجموعات فرضية hypothetical categories، تقرأ بشكل استنتاجي deductively ليتم تقرير ما إذا كانت المعلومات الكاملة تسند تلك المجموعات. والأنساق العامة التي تتكون في البحث النوعي يقصد بها التفسير وبناء النظرية لفهم الظاهرة وليس المقصود إيجاد قواعد عامة للظواهر المشابهة.

ويؤكد أندرسون (Anderson, 1987) على أن التركيز على الاستقراء في البحث النوعي لا يعني أن النظرية غير موجودة، فبالإضافة إلى مسلمات نظرياته الأساسية (مثل أهمية المعنى) يستخدم البحث النوعي النظرية لتعريف موضوع دراسته، فالباحث يدخل بنظرية معينة حول موضوع بحثه، وهي التي توجه استكشافه، لكن الفارق هنا بين البحث الكمي والبحث النوعي هو أن هذه النظرية لا تعطي أحكاما مسبقة، ولا تقيد نتائج البحث، بل تحدد وجهته العامة. فالباحث يترك موضع الدراسة وسياقها، أي الإطار الذي هو فيه، يظهران له ماذا يعني له موضوع الدراسة.

فمع أن البحث النوعي استقرائي في الأصل إلا أن الاستنتاج قد يظهر في بعض الأحيان تبعا لا استقلالا، فتفسيرات الباحث التي يأخذها من تحليل البيانات يمكن أن يستخدمها فرضيات ويتحقق منها. بمعنى أنه يطرح عددا من التفسيرات البديلة، ويبدأ في التحقق منها وتقويمها حتى يتوصل للأكثر قبولا. وحتى يعطي القارئ أكثر عدد ممكن من التفسيرات، فمثلا يمكن أن نستقري أسباب نفور الطلاب من مادة دراسية ما من خلال إجراء مقابلات معمقة مع الطلاب وتحليل الإجابات، وبعد التوصل للنتائج يمكن أن يعاد سؤال الطلاب أو المعلمين عن تلك الأسباب للتحقق من مدى صحتها.

٤- المعلومات الوصفية

في البحث النوعي يكون التركيز على المعلومات الوصفية، التي تصف الظاهرة الاجتماعية كما تحدث. ويسعى الباحث للتعمق في جمع المعلومات والتفصيل فيها ويحرص على أن تكون مشتملة لجميع جوانب الظاهرة، وعميقة ومتنوعة، بحيث تشمل أساليب جمع المعلومات المقابلة والملاحظة وتحليل الوثائق والأحداث والمنتوجات الثقافية ونحوها. في البحث الكمي غالبا يتم التركيز على نمط واحد من المعلومات ومن متغير واحد أو متغيرات محدودة جدا، ويركز على العلاقات بين المتغيرات وعنصر السببية فيها، مما يجعل المعلومات المتوفرة عن الظاهرة المدروسة سطحية وجزئية قياسا بالمعلومات في البحث النوعي، ومحددة بالسبب والنتيجة أو العلاقة بين متغيرات البحث.

٥- الاهتمام بالعملية وليس فقط بالمنتج

بحسب جارفنكل فإن علماء الاجتماع يفرقون بين معاني (المنتج) و معاني (العملية) للمعرفة المشتركة في مجتمع ما، فالمعرفة العامة من حيث هي منتج يعتقد أنها

تتكون من اتفاقات أو مواضعة مشتركة على أمور موضوعية substantive matters ومن حيث هي عملية تتكون من عدد من الطرق التي من خلالها يُعرف ما يقوله شخص أو يفعله على أنه موافق للقواعد (Garfinkel, 1977).

فالبحث النوعي يعتني في بحث الظاهرة بكيفية عمل الناس للأشياء وليس فقط بتلك الأشياء، فدراسة كيف يتوصل الناس إلى حل المشكلة مهم مثل حل المشكلة الذي يتوصلون له، فلأجل الإحاطة بالمعنى المرتبط بالظاهرة من جميع جوانبه، فالطرق التي يسلكها الناس للتعامل مع الظاهرة أو للتسبب في وجودها أو كيفية الشعور بها مهم كوجود الظاهرة نفسها. وذلك لعلاقته المباشرة ببناء المعنى الذي يسعى له الباحث، فالجزء من الظاهرة المتعلق بسلوك وشعور المبحوث هدف أساس في البحث النوعي وليس فقط دراسة الظاهرة منقطعة باقتطاعها من سياقها الطبيعي. فلولا المبحوث لم توجد الظاهرة، أي أنه جزء أساس منها. فكيفية قيام الطلاب بعمل ما، مهم كأهمية العمل نفسه، وكذلك كيف يقوم المعلمون بأعمالهم وكيف يختارون طرق التدريس أو وسائله مهم بدرجة لا تقل عن تلك الطرق أو الوسائل.

٦- الكلية والتعقيد Wholeness and complexity

يبدأ البحث النوعي بفرضية بأن الوضع الاجتماعي موضوع الدراسة فريد ومتغير ومعقد، فالمدرسة بيئة معقدة، وليست كما يمكن أن يظهرها بحث كمي على أنها مجموعة من الطلاب يجتمعون لتلقي العلم ثم ينصرفون لحياتهم الطبيعية، فهي جزء من حياتهم الطبيعية بعلاقاتها وطبقاتها ومشكلاتها وتعقيداتها، بل ليس من المبالغة القول إن كل موقف تعليمي متفرد في ذاته.

ويوفر البحث النوعي وسيلة يمكن من خلالها فحص السياق context الاجتماعي لأي ظاهرة بشكل منتظم بوصفه كلا متكاملا، دون تقسيمه إلى متغيرات

منفصلة وغير مكتملة وغير مترابطة. فلا يمكن اختزال المعلومات النوعية التي في الأشياء والصور وأنماط العلاقات وأنواع التفاعلات والوصف التفصيلي إلى أرقام دون تشويه ما تمثله من روح المعاني الاجتماعية والتربوية وما تحتويه من رموز وإيحاءات معلنة أحيانا ومضمنة في أحيان أكثر. ولذلك فتقرير البحث النوعي عادة ما يشتمل على سرد دقيق ومفصل يُظهر أصوات المشاركين في الدراسة، بقصد الإحاطة بالمعنى بأكبر قدر ممكن وتوضيح الصورة الكلية من جميع جوانبها. وهذا متفرع عن مركزية المعنى في البحث النوعي.

٧- نمو التصميم Emergent design

من أوضح خصائص البحث النوعي أن الدراسة تنمو وتكبر وربما تتغير أثناء تطبيقها، عما كان يتصور الباحث، فلأن الهدف من البحث النوعي هو الولوج إلى داخل الظاهرة الاجتماعية موضوع البحث في وضع اجتماعي خاص، فمن غير الممكن بناء تصميم كامل مسبق الإعداد يأخذ في الاعتبار ما يجده الباحث عند دخوله الفعلي لذلك الوضع الاجتماعي المراد دراسته (Lincoln & Guba, 1985). فالظاهرة التربوية في الجملة مجهولة بالنسبة للباحث، وتفصيل ما سيواجهه الباحث أثناء دراسته غير معروف له، بل كثيرا ما تكون الخطوة اللاحقة في البحث مبنية على ما سيجده الباحث في الخطوة الحالية وما يتكشف له من تداعياتها. بل إن سلفرمان (Silverman, 2005, p.80) يقول "إن جمال البحث النوعي يكمن في أن ثراء بياناته قد يوفر الفرصة لتغيير تركيز [البحث] استجابة لما يمليه التحليل." بل يزيد على ذلك بالقول (ص ١٥٣) إنه "في غالب البحوث النوعية قد يكون التقيّد بالتصميم الأصلي علامة على التحليل غير المناسب للبيانات، بدلا من أن يكون علامة على الاتساق." وهذا - كما يقول هاتش (Hatch, 2002) - يمثل منطقة توتر بين دارس الدكتوراه وأعضاء لجنة رسالته.

فكثير من أساتذة الجامعات خاصة من تعود على البحوث الكمية، وتملكه هاجس "المنهج العلمي الوضعي" وينطلق من المنهج الوضعي البحت يتوقع أن يرى مقترحا متكاملا فيه تفاصيل تصميم البحث، وهو مالا يمكن أن يتم عادة في البحث النوعي. فالبحث النوعي مستمر التكوّن والظهور والنمو، منذ بدايته حتى نهايته. فقد يدخل الباحث المدرسة وفي ذهنه سؤال أو مشكلة فيكتشف من البيانات الأولية ومن انغماسه في مجتمع المدرسة أن المشكلة أعمق وأكثر تشعبا فيَنساق مع البيانات ويتوسع في جمعها ولو أدى ذلك إلى تغير في سؤال البحث.

٨- الذاتية

بينما تكون الموضوعية سمة للبحث الكمي، تعد الذاتية سمة للبحث النوعي؛ فالباحث ينغمس في البحث جمعا للمعلومات وتحليلا لها بحيث يصعب انفكاكه عن الظاهرة المدروسة، مهما حاول ضبط تحيزاته أن تتدخل في إجراءات بحثه. وقد يكون أثر الذاتية أكثر وأظهر في مرحلة التفسير، ففي مرحلة الوصف قد يكون الباحث إلى حد ما موضوعيا، إلا أن التفسير بطبيعته لا بد أن يكون ذاتيا، بشكل أو بآخر. ويحتم هذا أن الباحث نفسه هو أداة جمع المعلومات وليس الاستبانات كما في البحث الكمي (Lincoln & Guba, 1985, Hatch,2002). بالإضافة إلى الاشتراك المباشر والموسع في عملية البحث.

ولذلك ظهر مفهوم الانعكاسية في البحث النوعي للتأكيد على وعي الباحث بذاته ودوافعه السياسية والثقافية والمنظور الذي ينطلق منه. وهي كما يقول (Patton, 2002, p. 64) عملية تفكيكية لتحديد أماكن الالتقاء أو التقاطع بين المؤلف والآخر والنص والعالم، فالانعكاسية تعني الوعي بمسألة الذات وعلاقتها بالبحث وتأثير الباحث على الوضع الذي يبحثه، ففي البحث النوعي لا يمكن الفصل بين العالِم

والمعلوم، فليس هناك طريقة للخروج من العالم الاجتماعي لأجل دراسته. فالانعكاسية هي عملية التأمل الشخصي والأكاديمي في الخبرات المعاشة بطرق تظهر ارتباطا عميقا بين الكاتب موضوع البحث (Goodall, 2000, p. 137) وهي مهمة لاستقامة البحث النوعي.

تلعب الانعكاسية ، كما تشير داولنج، دورا مهما في البحث النوعي من وجهة نظر الحركة النسوية بشكل خاص والبحث النوعي بشكل عام. وتعني بشكل عام الانتباه التحليلي لدور الباحث النوعي في البحث. وتعني أن الباحث يجب أن يقوم بشكل مستمر بنقد ذاتي أو تقويم ذاتي، ويبين كيف أن خبراته السابقة أثرت (أو لم تؤثر) على عملية البحث، فهي تتطلب من الباحث أن يقر بأنه مشترك بدرجة قوية في عملية البحث وفي ناتجه، وتشمل إدراك الباحث بعلاقة الباحث بموضوع البحث والمشاركين فيه، سواء على المستوى الشخصي أو المستوى المعرفي (الإبستمولوجي) (Dowling, 2006).

وتؤكد داولنج على أهمية الانعكاسية في البحث النوعي، حيث إنه ينظر إليها على أنها وسيلة لإضافة المصداقية للبحث النوعي وهو جانب طالما تعرض للنقد، خاصة من قبل أنصار البحث الكمي، فالانعكاسية بوصفها وسيلة لبيان رؤية الباحث الشخصية للظاهرة المدروسة، عن طريق المفكرات الشخصية، طريقة لزيادة مصداقية النظرية المؤسسة في البحث النوعي (Dowling, 2006).

الانعكاسية وسيلة لمنع الانحياز الذاتي المحتمل من الباحث، فهي تدفع الباحث لأن يكون أكثر وعيا بثقافته وتحيزاته وتوجهاته، فالانعكاسية ليست مماثلة للذاتية، لكنها تفصل بين الذاتية والموضوعية. كما أن الانعكاسية تضيف مزيدا من المصداقية والعمق للبحث النوعي وذلك بإعطاء مزيد من المعلومات عن السياق الذي وجدت فيه البيانات (Etherington. 2004).

الفروق بين البحث النوعي والبحث الكمي

يلاحظ الممارس للبحث فروقا بين البحثين الكمي والنوعي، فمن حيث المبدأ يعتمد البحث الكمي على الكم والعدد في المعلومة، بحيث يكون المعوّل عادة على العدد أو الفرق الإحصائي في نتائج البحث. بينما يعتمد البحث النوعي على نوعية المعلومة والمعنى المرتبط بها، دون التركيز على الكم، وهذا لا يعني أن الكم غير مهم في البحث النوعي، بل إن المقصود أنه ليس العامل الأول أو الأوحد في تقرير النتيجة. وقد شهدت سنوات مضت سجالا بين التوجهين في محاولة لإثبات تفوُّق توجه على الآخر. لكن بدأت المراجع الحديثة تميل إلى بيان الاختلاف دون الدخول في التفضيل، للقناعة المتنامية باختلاف هدف ومجال كل من التوجهين.

والجدول رقم (٥) يلخص الفروق الأساسية بين البحث الكمي والبحث النوعي في عدد من المجالات.

جدول رقم (٥). الفروق الأساسية بين البحث الكمي والبحث النوعي في عدد من المجالات.

البحث الكمي	البحث النوعي
المفاهيم الأساسية	
المتغير. التعريف الإجرائي. الثبات. الفرضية. الصدق. الدلالة الإحصائية. إعادة التطبيق. التنبوء. التجريب.	المعنى. فهم الشعور العام. الحجب bracketing. تعريف الموضع أو السياق. الحياة اليومية. النظام المناقَش. الفهم. العملية. البناء الاجتماعي. النظرية المؤسسة.
الارتباط النظري	
البنيوية الوظيفية. الواقعية. الوضعية. السلوكية. الحسية المنطقية. نظرية النظم	التفاعل الرمزي. المنهجية الثقافية. الظاهرية. الثقافة. الفلسفة المثالية.

تابع جدول رقم (٥).

البحث الكمي	البحث النوعي
الأهداف	
فحص النظرية. تأكيد الحقائق. الوصف الإحصائي. اكتشاف العلاقات بين المتغيرات. التنبوء. التعميم	بناء مفهوم حي. وصف حقائق متعددة. النظرية المؤسسة. بناء الفهم. بناء المعنى.
التصميم	
منظم. معد مسبقا. خطة عمل محددة ومفصلة.	متنامي. مرن. عام. يعتمد على الحدس في التقدم.
خطة البحث (مقترح البحث)	
مكثف. مفصل ومركز من حيث الموضوع. مفصل ومركز من حيث الطريقة. مراجعة معمقة لأدبيات الموضوع.	مختصرة.مبدئية. تقترح بعض مواضع البحث التي قد تكون ذات علاقة، وعادة يتم هذا بعد جمع بعض المعلومات. غير عميق في مراجعة أدبيات موضوع البحث. صياغة عامة لطريقة البحث.
البيانات	
كمية. تركيز كمي. مقاييس. تعداد. متغيرات معرفة إجرائيا. إحصاء.	وصفية. وثائق شخصية. ملاحظات ميدانية. صور. كلمات الناس. وثائق رسمية. مصنوعات يدوية.
العينة	
كبيرة. طبقية. مجموعة ضابطة. دقيقة. اختيار عشوائي. ضبط المتغيرات الخارجية.	صغيرة. غير ممثلة. عينة نظرية. العينة المتنامية. قصدية.
الطرق والأساليب	
التجريب. البحث المسحي. المقابلة المنظمة. شبه التجريب. الملاحظة المنظمة.	الملاحظة. ملاحظة المشارك. مراجعة عدد من الوثائق. المقابلة المفتوحة. التفسير الشخصي.
العلاقة مع عينة البحث	
الانفصال. مدة قصير. بعيد. باحث مع فرد من العينة. محدودة/محصورة	متعاطف. تركيز على الثقة. تساوي. الفرد من العينة صديق. الاتصال المكثف.

تابع جدول رقم (٥).

البحث الكمي	البحث النوعي
الأدوات	
الأدوات	
المقاييس. الاستبانات. المؤشرات. درجات الاختبارات.	المسجل. الكاتب الآلي transcriber . الحاسب الآلي.
تحليل البيانات	
استنتاجي. يحدث في نهاية جمع المعلومات. إحصائي.	مستمر. نماذج. موضوعات (محاور). استقرائي. تلخيص تحليلي Analytical induction. طريقة مقارنة مستمرة.
المعوقات (المشكلات)	
ضبط المتغيرات الأخرى. الصدق.	يستغرق وقتا. صعوبات تلخيص البيانات. الثبات. ليس هناك معيارية في الطريقة. من الصعب دراسة مجتمعات كبيرة.

المصدر: Bogdan R. & Beklin, S. (1998). Qualitative Research for Education. Allyn and Bacon. p. 40. بتصرف.

موثوقية البحث النوعي

من التحديات التي تعرض لها البحث النوعي خاصة في الميدان الأكاديمي إثبات الموثوقية، إذ كيف يثبت الباحث النوعي، في ظل هذه المرونة وفي إطار الذاتية التي يعمل فيها، أن ما يقوم به يعتبر استكشافا يقدم شيئا للمعرفة الإنسانية، وليس مجرد انطباعات عابرة لملاحظ مهتم بظاهرة اجتماعية ما، فالطبيعة الأيديولوجية للبحث النوعي ومن حيث تأثيرها على سياق البحث والمشاركين فيه ومن حيث الطريقة التي تبنى بها وقائعه تجعل كتابة هذا النوع من البحث أمرا حساسا للغاية حتى بالنسبة للباحثين المتمكنين الذين يعون تقاليد الكتابة العلمية جيدا (هوليداي، ٢٠٠٧).

لهذا تعرض البحث النوعي لانتقادات عنيفة من أنصار البحث الكمي، حيث قللوا من فائدته البحثية لإخلاله بمعايير أساسية لضمان العلمية، فما الضمانات في هذا المجال؟ وهي ما يطلق عليها بعض الباحثين معايير الصحة (Marshal & Rossman, 1999). وقد توجه النقد تحديدا لعدد من المفاهيم التي يرى أنصار البحث الكمي أنها راسخة وأساسية في تقاليد البحث العلمي وتمثل نقاط قوة فيه، وفقدانها ينفي صفة العلمية وربما الجدية عن العمل البحثي. وهذه المفاهيم هي: الصدق الداخلي والصدق الخارجي أو إمكانية التعميم، والثبات والموضوعية.

ومن المهم لمن أراد الاشتغال بالبحث النوعي الإلمام بهذه الموضوعات وكيف استطاع أنصار البحث النوعي تجاوزها أو التعامل معها. ولتجاوز هذه النقاط حدد لنكلن وجوبا (Lincoln & Guba, 1985, p. 218) أربعة معايير لما أسماه الموثوقية Trustworthiness وهي:

المصداقية

يستخدم مصطلح المصداقية مقابلا لمصطلح الصدق الداخلي في البحث الكمي، والذي يعني أن يقيس الاختبار ما وُضع لقياسه، ففي البحث النوعي يسعى الباحث لأن تتطابق نتائج دراسته مع الواقع، وهو من أهم العوامل لضمان موثوقية البحث حيث عده (Lincoln & Guba, 1985) المعيار الأساسي لذلك.

تحقيق المصداقية

يمكن ضمان مصداقية البحث النوعي من خلال الآتي (Shenton, 2004):

- استخدام طرائق بحث معروفة ومعتبرة.
- التعرف المبكر على ثقافة المشاركين.
- الاختيار العشوائي للمشاركين (وهذا إذا لم تكن الدراسة تعتمد على العينة المقصودة).

- استخدام أكثر من طريقة لجمع المعلومات Triangulation ، واستهداف أكثر من مشارك أو مكان للدراسة.
- الحرص على أمانة المشاركين، من خلال تشجيع المشاركين على أن يكونوا صريحين فيما يقولون، وإعطائهم الفرصة لرفض المشاركة حال عدم رغبتهم في المشاركة.
- طرح الأسئلة التي تكشف ما قد يكون لدى المشارك من كذب أو تناقض أو عدم دقة.
- تحليل حالات الأمثلة السالبة، وهي الحالات التي تخالف النسق العام في بيانات البحث.

فاستخدام الباحث أكبر قدر من هذه الأساليب يمكن أن يضمن حدا مُرضيا من المصداقية.

الانتقالية Transferability

في البحث الكمي يطلق الصدق الخارجي على ما إذا كانت نتائج دراسة يمكن أن تنطبق على حالة أخرى، ويسمى التعميم. يقابل هذا في البحث النوعي الانتقالية.

فهدف من أهداف البحث في التوجه الوضعي هو أن يمكن التنبوء من خلال نتائج دراسة ما بما يمكن أن يقع في حالة مشابهة. الانتقالية في البحث النوعي تعني أن نتائج البحث قد تكون مفيدة في حالات مشابهة. وهناك خلاف كبير بين المشتغلين في البحث النوعي حول تحقيق البحث النوعي الانتقالية من عدم تحقيقها، بمعنى أنه يمكن تطبيق نتائج دراسة ما على حالات مشابهة (Shenton, 2004, Lincoln & Guba, 1985). فمن حيث المبدأ لا يرى غالب أنصار البحث النوعي أن من أهداف البحث النوعي الأساسية تعميم النتائج وإنما التعمق في فهم الظاهرة المدروسة، ومن يرى منهم إمكانية

التعميم (Marshal & Rossman, 1999) فإنه يرى أن مسئولية تحقيق ذلك إنما هي على الباحث الذي سيجري البحث الجديد، وليس على الباحث الذي قام بالبحث السابق ؛ فالباحث في الحالة الجديدة هو الذي يجب عليه أن يتأكد من أن الحالة الجديدة يمكن أن تستفيد من نتائج الحالة القديمة.

الاعتمادية Dependability

يستخدم هذا المصطلح في مقابل مصطلح الثبات في البحث الكمي، فالثبات يعني أنه لو أعيد تطبيق الاختبار في نفس الظروف سيحقق نتائج مشابهة. وهذا المفهوم قائم على التصور الوضعي الذي يرى أن الظواهر التربوية تسير بشكل منتظم ومنطقي، وأن ما حدث في وضع لا بد أن يحدث في أوضاع مماثلة. وهذا يختلف مع التصور الذي يقوم عليه البحث النوعي الذي يرى أن الحقيقة الاجتماعية يتم إعادة بنائها باستمرار وبشكل متجدد، وبالتالي فمفهوم إعادة تطبيق البحث تصبح إشكالية في البحث النوعي (Marshal & Rossman, 1999)، إلا أنه يمكن للباحث تعزيز هذا الجانب من خلال الآتي (Shenton, 2004):

- تضمين البحث قسما يوضح تصميم البحث وإجراءات تطبيقه وكيف نفذ.
- الوصف الإجرائي لعمليات جمع المعلومات وذكر تفصيلات ذلك.
- تقويم تأملي لمشروع البحث لتقويم فاعلية عملية البحث التي تمت.

التطابقية(التأكيد) Confirmability

التطابقية (أو القابلية للتأكيد) تقابل الموضوعية في البحث الكمي (Lincoln & Guba, 1985). وهذا يعني الإجابة على السؤال: هل يمكن أن تؤكّد نتائج البحث عن طريق باحث آخر؟ أو من خلال نتيجة بحث جديد؟ ويتم ذلك في البحث النوعي من خلال نقل التقويم من بعض الخصائص المتأصلة في الباحث (وهي الموضوعية)

ووضعها في البيانات نفسها. فالمعيار النوعي إذن هو: هل البيانات تساعد على تأكيد النتائج العامة؟ هذا هو المعيار النوعي المناسب، كما يراه مارشال وروسمان (Marshal & Rossman, 1999). ولذا على الباحث النوعي ـ كما يؤكد مارشال وروسمان ـ أن يعالج في مقدمة بحثه القلق الطبيعي الذي سينشأ عند القارئ من احتمال تأثير ذاتية الباحث في إجراءات ونتائج البحث. ويمكن أن يتم ذلك من خلال اتباع الإجراءات التالية:

- اختيار باحث مشارك يعمل ناقدا لكل خطوات البحث.
- البحث عن الأمثلة السالبة وإظهارها.
- بيان كيف أن التحليل اهتم بالبحث عن تفسيرات بديلة واختبارها.
- تقديم أمثلة لملاحظات خالية من الأحكام ومحايدة، والفصل بين الملاحظة المحايدة والملاحظات الشخصية/ التفسيرية.
- وضع بيان بمتابعة خطوات جمع المعلومات وأساليب التحليل.

ويلخص الجدول (٦) معايير ضمان الموثوقية في البحث النوعي (Johnson & Waterfield, 2004, Marshal & Rossman, 1999)

جدول رقم (٦). معايير ضمان الموثوقية في البحث النوعي.

المعيار في البحث الكمي	المعيار في البحث الكيفي	التعريف
الصدق الداخلي	المصداقية Credibility	عندما تقدم الحقائق المتعددة التي ظهرت من المبحوثين بأكبر قدر من الدقة، فيعرف من عاشوا هذه الخبرة حالا وصفها وتفسيرها. هل حقق الباحث الثقة في بياناته؟
	قيمة الحقيقة Truth value	صدق النتائج للمبحوث ويبين السياق الذي عملت فيه الدراسة.
الصدق الخارجي	الانتقالية Transferability	إمكانية الفرضيات الإجرائية بين مواقع مختلفة.
	التطبيقية Applicability	مدى إمكانية تطبيق النتائج لموقع آخر أو مجموعة أخرى. إمكانية التعميم لمجتمع أكبر.
	الملاءمة fittingness	عندما تناسب نتائج الدراسة سياقا خارجيًّا آخر.
الثبات	الاعتمادية Dependability	التحسب للتنوع في الظاهرة المدروسة أو استخدام التغير في تصميم الدراسة بسبب العملية الاجترارية iterative للبحث.
	التدقيق Auditability	مدى السهولة التي يتمكن بها القارئ من تتبع سبل اتخاذ القرارات التي اتخذت في عملية البحث
الحياد (الموضوعية) Neutrality	التطابقية/ التأكيدية confirmability	حيادية البيانات، وليس الباحث، بحيث يصل الآخرون لنفس التفسيرات للمعاني والدلالات التي وصل لها الباحث الأول.

لكن الملاحظ أنه في السنوات الأخيرة ومع تنامي قبول البحث النوعي واستقلاليته ووضوح منهجيته كان هناك تحول إلى معايير أكثر ارتباطا بخصائص البحث النوعي ذاته، مثل دور الباحث، وقدرته على إيصال أفكار البحث للقارئ، واشتمال بياناته وإجراءاته على تفصيلات دقيقة، بالإضافة إلى قدرة البحث على إقناع القارئ وتقديم نتائج متسقة مع منهجية البحث وبياناته (Lichtman, 2010).

أيهما أفضل البحث النوعي أم الكمي؟

كما سبقت الإشارة، لازمَ ظهورَ البحث النوعي التنازعُ بين أنصاره وأنصار التوجه الكمي في البحث، فغالبا ما ينظر للبحث النوعي على أنه مناقض للبحث الكمي، ويوصف البحث الكمي بأنه دقيق وعميق وعملي وعلمي، بينما البحث النوعي انطباعي وعاطفي وغير علمي وسطحي. وقد يكون سبب هذا الحكم على البحث النوعي أنه يوصف عادة من منظور أصحاب التوجه الكمي وباستخدام مصطلحاتهم. وهذا التقسيم الثنائي يغفل حقيقة المظاهر الكثيرة المشتركة بينهما، ويغفل التنوع داخل كل توجه (Marecek, 2003) .

فلا بد من التأكيد على ما أشار إليه كثير ممن كتب في هذا الموضوع، من أنه ليس لأحد النوعين أفضلية مطلقة، بل لكل مزاياه، وهما طريقتان مختلفتان لكن يمكن أن يكمل أحدهما الآخر، ويمكن أن يكون أحدهما فاعلا دون الآخر. والذي يحدد أي منهجية بحثية يجب أن يستخدمها الباحث هو سؤال البحث، فالسؤال الذي يطرحه الباحث والذي ينبع من مشكلة بحثية يراها، هو الذي يحدد هل الأفضل استخدام البحث النوعي أم البحث الكمي. فالبحث النوعي ليس له أفضلية مطلقة، كما يؤكد سلفرمان (Silverman, 2005) بل إن تحديد نوع البحث يعتمد على نوع المشكلة. وبشكل عام يرى كريسويل (Creswell, 2009) أن تحديد منهجية البحث تخضع لثلاثة

اعتبارات رئيسة، وهي مشكلة البحث، وخبرة الباحث بمنهجية البحث المختار، والمتلقين للبحث، فمثلا إذا أراد المرشد الطلابي في مدرسة ما أن يعرف مزيدا من المعلومات عن أولياء أمور عدد من طلابه، وأراد أن يعرف مثلا مستواهم التعليمي، وأعمارهم، وأعمالهم، وكم ساعة يقضونها عادة مع أبنائهم، فمن المؤكد أن المنحى الكمي أفضل طريق لنيل هذه المعلومات بأسرع وقت عن طريق استبيان يقوم الطلاب أو أولياء أمورهم بتعبئته.

لكن لنفرض أن المرشد الطلابي يريد أن يتعمق أكثر فيتعرف على الخبرات التي يمر بها بعض الطلاب المدخنين أو من يتعاطون المخدرات، وكيف ينظرون إلى علاقتهم بأسرهم أو أنماط العلاقات مع أصدقائهم. ولاحظ هنا أن ما يريده الباحث غير معروف بدقة، وحدوده غير واضحة. فهو يريد أن يتعرف على نوع الخبرات وطبيعة العلاقة لكن لا يدري ما يواجهه بالتحديد. فهنا لن يستفيد كثيرا من المنحى الكمي، بل سيكون المنحى الكيفي هو الأفضل له.

وفي تشبيه معبّر، وقد يوضح صورة الفرق بين المنهجين من جهة والتكامل الممكن من جهة أخرى، يضرب شانك وفيليلا (Shank & Villella 2004) مثالا للبحث الكمي كمثل النافذة يُنظر من خلالها للأشياء، والبحث النوعي مثل المصباح يستخدم لاستكشاف جوانب أو مناطق مظلمة محددة بشيء من التركيز. وتشبيه آخر للفرق بين التوجهين قد يكون أبسط وهو الفرق بين من يخبرك عن درجة الحرارة في يوم معين ومن يخبرك عن طبيعة الجو الحار في ذلك اليوم وشعوره نحوه.

والشيء المؤكد أن الميدان التربوي بحاجة إلى البحث التربوي النوعي، والاقتصار على البحث الكيفي يحرم الباحثين من استكشاف أعمق وفهم أدق للظواهر التربوية.

ملخص الفصل

في هذا الفصل تم استعراض أهم خصائص البحث النوعي التي تميزه، وقد ينفرد بها. كما تم شرح أهم نقاط الاختلاف بين المنهجين النوعي والكمي في البحث. وقد اشتمل الفصل أيضا على بيان الطرق التي يجب أن يسلكها المشتغلون في البحث النوعي لإعطاء مصداقية للبحث النوعي، بحيث يمكن الاعتماد على نتائجه في البناء المعرفي العام.

في الفصول التالية من القسم الثاني سيكون الكلام عن أمور إجرائية في تطبيق البحث، حيث سيتم بسط الكلام عن تصميم البحث النوعي، وسنبين مرونة التصميم في البحث النوعي مقارنة بالبحث الكمي، كما سيتم الحديث عن بناء الإطار النظري، وصياغة أسئلة البحث، مع بيان أساليب جمع المعلومات، مع بسط القول في موضوع تحليل المعلومات في البحث النوعي.

obeikandl.com